دار الزنبقة
امتداد الظل
جهان سمرقند

امتداد الظل

جهان سمرقند

طبعة الكترونية اولى .

دار الزنبقة للنشر الالكتروني الحر .

Zanpaka Publishing House

/http://zanpaka.com

هذا النص حق فكري لصاحبة العمل وتابع لدار الزنبقة للنشر الالكتروني الحر .لا يجوز اعادة نشره الا بالنسبة الى صاحبه حسب رخصة الـ CC .للنشر الورقي الرجاء مراسلة الدار على الموقع الالكتروني .منشور حسب قوانين الابداع العالمي المشاع .حسب التعليمات الاتية :

Cette oeuvre, création, site ou texte est sous licence Creative Commons Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Partage dans les Mêmes Conditions 4.0 International. Pour accéder à une copie de cette licence, merci de vous rendre à l'adresse suivante http://creativecommons.org/licenses/by-nc-sa/4.0/deed.fr ou envoyez un courrier à Creative Commons, 444 Castro Street, Suite 900, Mountain View, California, 94041, USA.

cc creative commons

obeikandl.com

امتداد الظل

جهـــان سمـــرقنــــــد

obeikandl.com

إهداء

إلى ذلك الرجل الذي توقف يوما أمام متسولة زنجية صغيرة ، و تأملها زمنا غير مبال بالناس من حوله ، و ظلت هي تتمعنه و الخوف يربكها، ثم انحنى و ناولها قطعة نقدية و قبلة بددت مخاوفها ، هي التي شغلها جوع بطنها عن جوعها العاطفي، و هو الذي انحنى و التقط بقبلته إنسانية وقعت منا جميعا..

إلى رداء يلفني و يعلو بي..

إلى نجمة اهتديت بها..

إلى كلمات لم أقلها بعد..

إلى من ألهماني لخط هذه السطور

إلى أحلام تكسّرت تحت أقدام الطغاة..

إلى أولئك الذين لم يتذكرهم أحد بإهداء..

إلى جوعى المشاعر..و من لا أهل لهم

و إليكم جميعا..

obeikandl.com

مقدمة

تتساقط علينا الشمس بأشعتها، يتسلل دفؤها بيننا..يسير كل واحد منا في اتجاهه..يعكس نورها ظلالنا..نعبر الطرقات، يطأ بعضنا ظلال بعض..البعض يطأ و البعض يُوطئ ..لا نبالي و لا نعنى بها، فهي لا تصدر صوتا و لا تحكي شيئا، و مع هذا فهي وحدها تعرّينا و تكشفنا..لا ألقاب تعكسـها و لا وجاهـة.. لا جمـال و لا قـبح..لا غنـى و لا فقـر.. كالحقيقة هي ظلالنا.. حيادية بلون موحد و لا تحابي أحدا...و كالظلال هي حقيقتنا، لا تتجلى إلا في حضور النور.. تشترط فيه أن يكون ساطعا ثابتا، لا يكفيها نور خافت أو شبه ضوء..

في ذك التجلي تزول الغشاوة، فنتتبع الظلال، و نرحل عبر امتداداتها لنصل في أطرافها إلى الحقيقة مجردة من كل زيف..

في « امتداد الظل» نعيد لملمة كرامة من تساقطت كرامتهم ، نحملها بين أكفنا، نمسح بها على وجههم و نعيدها لهم، ليرفعوا رؤوسا أحناها ثقل الحياة و يقيموا صلبا قسمه الدهر ..

و على الطرف الآخر نتتبع أولئك الذين سقطت منهم مروءتهم دون أن ينتبهوا، نحمل «اللُّقَطة» و نحاول اللحاق بهم لإعادتها لهم ، ندير عيونهم عن المرايا و عيون المنافقين و نوجهها إلى ظلالهم، نريهم الطريق عبر امتداداتها و نترك لهم حرية الاختيار ...و كل بما فيه ينضح .

obeikandl.com

من تساقطت كرامتهم

obeikandl.com

وأنت تحرّر نفسك بالاستعارات، فكِّر بغيركَ

مَنْ فقدوا حقّهم في الكلام

محمود درويش

obeikandl.com

ابتسم للكاميرا

مع كل إشراقة شمسٍ أبت أن تنير حياته، كان يستيقظ مثقلا بخيبات و أحلام قيد الانتظار، و بعد أن يغتسل و يتناول فطورا حُضّر على مضض ، تتأفف زوجته كثيرا ، و تخرج زفرات كلهيب النار تقطعها بتنهيدات تسحبها من جوفها المقعّر.. هي تفعل هذا كل يوم و لا تمل في إظهار تذمرها من الحياة البائسة التي تتقاسمها معه..يترك تصرفاتها معلقة في الهواء، و ينسحب صوب بدلته المعلقة..كم يحب هذه البدلة، وحدها عاشت معه أحلى المواقف على قلّتها ، و أمرّها على كثرتها ..كانت ترتديه كل يوم حتى شحب لونها.. فكبرا و شاخا معاً... التقط آلة التصوير و ترك كرامته مكانها، ففي هذا الوطن يعيل الرجل عائلته على حساب كرامته، ثم خرج دون أن يقول كلمة..

وقف على حافة الجسر و قد ارتدى نظارة سميكة ليغلق النافذتين المطلتين على روحه..فهو لا يريد لأحد أن ينظر إلى قراره.. وقف هناك و بدأ ينادي « من يريد التقاط صورة؟ ستكون جاهزة في لحظات»..

عادت به ذاكرته سنوات للوراء، يوم أن كان لهذا العمل قيمة ..يوم كان للصور قيمة و كان الناس يبتسمون بقلوبهم و عيونهم و شفاههم و بكلهم أمام العدسة...و كان هو يبتسم معهم..

كان حينها يحس أنه صانع معجزات..هو و آلته فقط استطاعا رسم ابتسامة محاها الدهر على وجوه خلت من الملامح.. لكنه في غمرة فرحه بصنيعه اغترّ و تضخم كبرياءه ، بالرغم من أن هذا العمل لم يكن يدر الكثير من المال إلا أنه افتتن بقدرة عدسته على صنع الفرق ولم ينتبه حينها للتغيرات التي كانت تتمخض. و لا ظن يوما أن مكانته هذه ستهتز تحت وقع جيوش التكنولوجيا القادمة..

و جاء التغيير و ابتذلت مهنة التصوير و صار للجميع كاميرات، فانفض الناس من حوله و بقي هناك وحده و قد خبا بريقه و انكمشت روحه..

كان من الصعب عليه أن يعود للظل و برودته التي تكتسح العظام، بعد أن تعود دفء النور و التفاف الناس حوله..لكن نواميس الكون جرت على التغيير و تطور، و أراد هو لفرط اغتراره بنفسه تحديها.. و الصراع مع سنن الكون محسوم حتما.

ها هو اليوم ثابت على عناده لم يبرح مكانه.. لكنه ليس صامدا كما يتوهم، فلم يبقى له الكثير من القدرة على الاستمرار.. و القليل فقط يفصله عن الانهيار و الوقوع من علو ذلك الجسر..

يوم صار يستجدي الناس أن يلتقط لهم صورا.. و يوم صار يحاول اتقاء نظراتهم التي تراه كمتسول لحوح..و يوم صار يحاول تفادي التعليقات الساخرة التي تذكره دائما أن الزمن تغير و أن لا أحد صار بحاجته، الحقيقة التي يراها الجميع و وحده ظل ينكرها..

يومها فقط انحنى كاهله من ثقل الظلمة و انتهى مجده الصغير القابع هناك عند نهاية امتداد ظله.

opelkandr.com

مرآتي..مرآتي

استيقظت في موعدها..تلمست ملامح وجهها ..مرّت أصابعها في تفاصيله، كل شيء في مكانه.. أطلقت سراح دمعة و نهضت من فراشها..

يكثر الناس في الحديث عن الألم، و يُراق حبر الأدباء في وصفه، لكنهم لا يدركون أن الألم الحقيقي هو ما نعجز عن التحدث عنه أو وصفه.. هو ذلك الشعور المبعثر في ذواتنا والذي لا نملك جمعه في حيّز واحد لنحيط به أو نحتويه..

أخذت نفسا عميقا واستعدت للخروج.. طأطأت رأسها و سارت مع الظل في الشارع و كأنها تخفي شيئا.. و هي فعلا تخفي شيئا.. كانت تخفي ذلك الذي يسميه الناس «قبحا» و « بشاعة» التصقت بوجهها هذا منذ ولادتها و زادت مع بلوغها المراهقة..

و عليها كل يوم أن تستمع لِكّم التعليقات الساخرة عن خِلقتها من شباب الحي الذين يجدون في مرورها فرصة لإطلاق قهقهاتهم العفنة.. و الحقيقة أنها لم تعد تستطيع تحديد شعورها من هذا الأمر، أو ربما لم تعد تشعر بشيء..فعندما يتلقى الإنسان عدة ضربات في مكان واحد تجعله يتخدر و يفقد الإحساس بالألم..

و هذا ما حدث لها، لقد فقدت الإحساس بوقع هذه التعليقات في نفسها منذ مدة، غير أن البعض يتفننون في إلحاق الأذى بها...و عليها في كل مرة التعامل مع ألم جديد.

كانت المدرسة بالنسبة لها جحيما يستعر..في السابق لم تكن تهتم، يوم كانت طفلة تتلاشى أكبر همومها بغفوة..و اليوم صارت أمنيتها أن تطول غفوتها هذه..

ترجت والدتها مرارا أن تتوقف عن الدراسة لكن والدتها رفضت.. طبعا!! فوالدتها لم تستطع تفهم وضعها..إما لأنها لا تحس بها و لا تعيش المضايقات التي تتعرض لها يوميا..أو أن عينيها تمنعها لم تريا ذلك الوجه بذلك القبح..

لكن الحقيقة أن والدتها كانت تنظر إليها ببصيرتها لا ببصرها، فتخلع عن ابنتها كل القشور لتلامس جوهرها.. كانت ترى الإنسان مجموعة من المشاعر المتناقضة ، من القيم و المثل..لا تركيبة عينين و انف و فم و أسنان..كان الإنسان عندها روح قبل أن يكون جسد، و لطالما

obeikandi.com

ذكرتها أن هناك من هم أسوء من حالتها هذه، فهناك من لا يملك عينين و فوق ذلك أصم و اخرس ..و هناك من تقيّح وجهه من مرض و لم يجد له علاج..و مع ذلك تحدوا وضعهم و شقوا لأنفسهم طريقا في حياة وعرة و نجحوا في فرض احترامهم على الناس، لا حبا لهيئاتهم و لكن تقديرا لإرادتهم..

تأتي كلمات والدتها هذه كماء بارد يطفئ نارا متأججة بين أضلعها.. و يعطيها دفعة، فتنام ليلتها متوسدة طمأنينتها وملتحفة بثقتها..و تستيقظ في الصباح لتمارس روتينها بصلابة اكبر هذه المرة.. لكن سرعان ما تتلاشى هذه الصلابة أمام قسوة نظرات الناس الباردة لها و تعليقاتهم اللاذعة، و لأنها صغيرة فهي لا تزال هشة ، كعود غض يسهل كسره تنكسر من جديد..

كيف لا و قد وجدت في زمن للجمال فيه موضة و معايير يتهم بالقبح كل من يخرج عنها..في زمن لا أحد يملك الوقت لينفض الغبار عن وجه روحها البهي والكل يحكم بقسوة عما يراه..

تعود إلى البيت..تقف أمام المرآة طويلا تتأمل تفاصيل وجهها..تعيد رسمها و تعديلها في ذهنها، ثم تأخذ صندوقا صغيرا و ترميه بقوة على المرآة فتنكسر وينكسر ظلها هي و يصبح على امتداده مجرد شظايا.

في القلب نور

ككل صباح يوقظه صوت والدته، فهو الشمس التي تضيء صباحاته منذ وجد في هذه الدنيا.. لم يرى يوما نور الشمس ، لكنه كان يحسه في ارتجاجات صوت والدته و دفئه..

يتحسس فراشه بحثا عن عصاه ..يمسكها فتصبح هي حاسته المفقودة.. تحضر له والدته الفطور، و ككل يوم يجلس على الطاولة و الحرج يملأه من العناء الذي يحسه في حركات والدته و هي تحاول أن تخدمه.

هي لم تكن ترى عناء فيما تفعله..كان هو روحها ولا أحد يتعب في خدمة روحه ..إلا أن إشفاقه عليها و إحساسه بالعجز تجاهها كان يحرق قلبه، فلا أسوء من إحساسه بأنه عاجز و دون فائدة و فوق كل هذا «عالة»..فكلمة « مسكين» التي ألصقها الناس باسمه كانت تؤلمه و « المسكينة» التي يلحقونها باسم والدته تكسره..وها هو بدل أن يريحها يزيدها تعبا و شقاء، بالرغم من أنها لم تشتكي يوما من فعل شيء لأجله، بل كانت تفعل ما تفعل عن طيب خاطر و تسأل الله أن يطيل عمره كي يبصر هو بها..

كل يوم كان تحديا له..حتى في تلك التفاصيل التي لبساطتها لا نميزها نحن..فالخروج من غرفته إلى الحمام كان تحديا..الأكل تحد....و اللحظات التي تفصل اليقظة عن النوم كانت تحديا له أيضا، فأنى له أن يدرك معنى أن ينتقل الإنسان من نور اليقظة إلى ظلمة النوم بمجرد أن يغمض عينيه..و أنى له أن يدرك معنى الحلم!!

يخرج من البيت ليمارس حق الحياة، يستدل في ذلك بوقع عصاه..يفتح قلبه ليرى به و ينظر و يتأمل و يتمعن و يبصر و يرتكب كل أفعال الإبصار به وحده..يرصد الأصوات ..فتلتقط أذناه الكلمات قبل أن تقع على الأرض..

« انتبه ..وراءك أعمى» يقولها الرجل لصاحبه ، يسمعها هو فستقر بداخله ..

فالكل يراه و هو الأعمى..

obeikandl.com

الجميع يرى شكله و يعرفونه أكثر منه ..هل يجوز له أن يسألهم « كيف أنا؟؟» ..قد يقولون «أنت أشقر»، ربما سيرتاح عندما يعرف كيف هو ..إذ انه أشقر ..لكن الفجيعة انه لا يدرك ما معنى أشقر..الكلمة لا توحي بشيء عنده!!

فيفجع مرتين ..مرة أنه لا يعرف هيئته ومرة لأنه لا يدرك أصلا معناها..

يعود إلى البيت..تفتح له والدته الباب « أهلا يا نور عيني» تقول ، يرد بازدراء :"نور عينك لا يبصر"..

« نور عيني لا يرى ، لكنه يبصر..و البصر نور ينبع من هنا ..من القلب ، ما معنى أن تكون لك عينان و لا ترى الفقير ، و ما معنى أن تكون لك عينان تشيحهما عن المظلوم، و ما معنى أن تكون لك عينان و لا ترى إلا الأبيض و الأسود..ما فائدة أن تدرك أن السماء زرقاء و قلبك يا ولدي أسود..نحن نرى بذلك النور الذي ينبع في أعماقنا ، فيتقد في أعيننا ..و أن لا ترى بعينيك لا يعني أنك أعمى ، بل أن النور بداخلك كان أقوى و أسطع من أن تتحمله قدرة عينيك يا ولدي»

عند سماعه لكلامها هذا ، أحس لأول مرة أنه يراها ، بل رآها حقيقة و كانت في جمال شعلة الأولمب.. فأنارته و استنار ظله.

obeikandl.com

روح القديسة

وصلت متأخرة كعادتها إلى العمل، و شرعت مباشرة في إنجاز عملها تفاديا لغضب المدير، الذي لم يحدث أن أتى في الوقت المحددة ، لكنها لم تكن لتسلم من توبيخاته الفظة لها ، فهناك دائما من يتربص بها و يخبره بمواعيد قدومها..فكان يحاسبها و لا يحاسبه أحد – أو هكذا يعتقد هو- ومع أنها لم تكن الوحيدة التي تأتي متأخرة لعملها..فكثيرات غيرها يفعلن،، لكنها لم تكن من النوع المفضل للمدير ، كانت بسيطة في لباسها، هكذا كانوا يصفونها في قاموسهم للدلالة على لباسها الخالي من البهرجة و الذي لا يبرز أيا من مفاتنها..كانت صارمة و تجيد رسم الحدود و لهذا لم تنل حظوة عند المدير و غيره من المسؤولين ، و لا حتى البعض من زميلاتها ، ذلك أن نقاءها الجلي أمامهن كان يذكرهن دائما بمدى اتساخهم..

لم يكن احد في العمل يعلم حقيقة سبب تأخرها عن العمل..لم يحاول احد أن يتمعن في تلك الروح المهمومة المكنونة خلف هذه الملامح الصارمة..

لقد رغبت عدة مرات في الاستقالة من هذا العمل و النفاذ بروحها من عفونة المكان التي تكاد تخنقها، لكنها في كل مرة كانت تتذكر والدها المتقاعد و والدتها المشلولة و إخوتها الصغار و احتياجات عائلة لا معيل لها غيرها..و منحة تقاعد والدها بالكاد تسد مصاريف دواءه و دواء والدتها..

كانت رجلا خارج البيت، و امرأة داخله.. كل مساء كانت تعود منهكة و لفرط التعب تحس أنها نصف إنسان.. تصل إلى البيت فتخلع عنها ثياب الرجل لترتدي ثياب المرأة و تباشر مهام ربة البيت..

تنظف والدتها التي لا تقوى على شيء دونها، تطعمها و تناولها دواءها..ثم تلتفت إلى باقي المهام البيتية. و عندما تنتهي من كل هذا، تتفقد دروس إخوتها فقد كانت تحرص دائما على تفوقهم..كانت تحب الدراسة جدا و تحلم أن تصبح طبيبة، لكن الظروف لم تسايرها في هذا و حالت بينها و بين حلمها..

يوم أن أصيبت والدتها بالشلل الكلي، لم يكن لها من خيار سوى إلقاء حقيبة المدرسة عن كاهلها و حمل مسؤوليات البيت..و مع الوقت كانت تضاف إليها المهام الواحدة تلو الأخرى حتى انحنى كاهلها من الثقل، و تناست نفسها..لم تعد تشعر بوجودها .. لم يعد لها متنفس لحياتها، فقد ألغت ذاتها و ذابت تماما في عائلتها.. حتى نسي الجميع بما فيهم هي أنها قد تعدت عتبة الثلاثين ولم تتزوج بعد، عدا بعض التعليقات الجارحة من بعض المتطفلين الذين يوحون لها أنها لم تتزوج لأنها غير صالحة لذلك..

كل صباح كانت تستيقظ قبل الجميع، تحضر الفطور لإخوتها و توقظهم جميعا ، و ها هم يكبرون أمام عينيها كل يوم ، و بالرغم من أنهم صاروا يعتمدون على أنفسهم في أمور كثيرة إلا أنها كانت تحب أن تهتم بتفاصيلهم فقد كانت تتغذى على شعورها بحاجتهم إليها وإنها لا تزال ذات فائدة ..

بعدها تذهب لإيقاظ والدتها برفق حتى تقوم نظافتها الشخصية و تغير لها ثيابها و تناولها دوائها، أحيانا تتأخر والدتها في الاستيقاظ و رحمة بها تصبر عليها، و لهذا عادة ما تتأخر عن العمل..

العمل الذي لم يكن أحد يعذر تأخرها عنه، و هي أيضا لم تكن لتخبر أحدا عن ظروفها، فهي لا ترغب في أن يستغلها أحد لهذا السبب.. و لأنها الوحيدة التي لا تزال تحتفظ بصورة والدتها القديمة.. المرأة التي تقف على قدميها فيقف كل شيء معها.. و لأنها تحتفظ باحترام كبير لوالدتها و هيبة تعقد لسانها قبل أن تقول " أنا أعتني بوالدتي"..

ارتدت ثيابها و خرجت بعد أن تفقدت كل شيء..توجهت إلى العمل في جسد ملفوف بثياب «بسيطة» ممتلئ بروح « قديسة»..و امتدت الهالة المحيطة بظلها ليراها فقط أولئك الذين فتحوا قلوبهم للكون فاتقدت بصائرهم.

obeikandi.com

إدانة

أحضرت له زوجته كل ما يشتهيه من طبخها.. جلست إلى الطاولة قبالته و قربت منه ما أحضرته، تمتم كلمات شكر ثم سألها عن أحوالها و الأولاد، قالت: «نحن بخير، و ماذا عنك أنت؟»

-" أنا...بخير!" أجاب بصوت متقطع.. صارت هذه هي عادته ..إجابته حروفٌ تخرج من فمه لتتلاشى في الهواء..نبرة صوته مضطربة..شيء ما انكسر في روحه فكسر صوته..

ساد بينهما صمت ثقيل للحظات بدت دهرا..و شرد ذهنه حتى جاء كلامها ليعيده إلى الواقع

-"مرّ الكثير و لم يبقى سوى القليل، ما هي إلا أشهر قليلة و تخرج من هنا".

- « إن شاء الله» أجاب باقتضاب و احتفظ بأفكاره لنفسه..الأفكار التي تقض مضجعه كل ليلة و تطرد النوم من عينيه..فليست هذه الجدران و القضبان المحيطة به هي ما يقلقه..بل تلك التي بناها الناس حوله بمجرد اتهامه و قبل أن يدان..و الذي يقهره أكثر أنهم وضعوا عائلته معه خلفها..

حُفرت في ذاكرته عيون أبناءه المليئة بالخوف و التساؤلات و هم يشاهدون الشرطة تأخذه من بيته..كلما حاول النوم تتراءى له هذه الصورة ..فتملكه هاجس أن يساور أبناءه الشك في براءته، هو الذي لم يمد يده يوما على ما ليس له..كان من ورعه يتعفف من أن يكتب أموره الشخصية بأقلام الشركة حيث كان يعمل محاسبا، و الجميع هناك يشهد بنزاهته وأخلاقياته في العمل، فكيف له أن يختلس من خزينتها..

لكن الناس يصدقون فقط ما يريدون..يحبون الاقتناع بأن لا أحد استطاع أن يبقى نقيا في هذا الزمن، و أن الجميع تلوث بهذه الدنيا و لم يسلم احد..و وجوده بينهم كان يكشف لهم عريهم..

قبل أيام من اعتقاله، كان قد اشتم رائحة تلاعب في الحسابات، فقام بما يمليه عليه ضميره المهني و اخبر المدير الذي وعده بأنه سيجري تحريات سرية و يكشف العصابة في غضون أيام..و ما هي إلا أيام حتى اختزلت العصابة في شخصه. لم يستوعب الأمر في البداية، ثم بدأ

obeikandl.com

كل شيء يتضح، لقد كان الشرك الذي وقع فيه محكما جدا، و لفقت له القضية و ألصقت التهمة به..و الحقيقة التي لا يعلمها الناس- أو ربما يعلمونها لكنها لا تناسب ذوقهم- هي أن المدير كان رأس العصابة، و كان هو الموظف الذي سيلقي بخطتهم التي خططوا لها أشهرا في الماء..لذا لم يكونوا ليسمحوا له بذلك، فحاكوا التهمة حوله و نفذوا بجلدهم و سمعتهم و نزاهتهم المزورة..و الكثير من أموال الدولة في أرصدتهم في الخارج..

وحمل هو وزرهم أمام العدالة و المجتمع..و أمام أبناءه!!

كان كلما زارته زوجته يحملها أمانة تبرئته في عيون أبناءه..يوصيها بأن تنظف كل يوم الصورة التي كان يرسمها له في عقولهم، صورة الأب القدوة المستقيم و النزيه..و أن تحرص على أن لا يفقدوا ثقتهم في القيم التي رباهم عليها، فهم يعيشون في زمن يغير الناس فيه قيمهم كما يغيرون ملابسهم حسب الفصول و حسب الموضة أيضا..

سيخرج عما قريب من هذا السجن إلى سجن من نوع آخر..سجنٌ الأحكام فيه جاهزة لأن تلصق بالإنسان دون رجعة، كأن تكتب الفضيحة في الصفحة الأولى و التبرئة في حيز صغير، في زاوية من صفحة لا يهتم بمطالعتها أحد..

سيخرج من هنا و يكون عليه حينها خوض معركة استرداد سمعة سرقت منه عنوة ..و لن يكون عليه أن ينظف صفحته البيضاء التي لم تتسخ على الحقيقة، بل أن ينظف الوسخ في تلك العيون التي تراها سوداء..

صاح الحارس بانتهاء الزيارة ..عادت زوجته لتواجه الأحكام القاسية في عيون الناس.. و عاد هو إلى زنزانة سجنه و أوصدت أبوابها..و ترك ظله الأبيض كصحيفته ممتدا خارجها ..

obeikanal.com

عرق على ورق

ارتفع صوت المنبه ساحبا إياه من دفء الحلم إلى برودة الواقع المضني، استيقظ مستعجلا، غسل وجهه بالماء البارد ليطرد عنه بقايا النعاس، تناول إفطاره في عجالة و خرج من البيت و الشمس لم تستيقظ بعد..

كان الضباب يلف الشوارع، و أنفاسه الباردة تخرج لتتلاشى في هواء أبرد...كان عليه أن يصل إلى ورشة البناء عند السابعة..و ككل يوم كان يصل في الوقت ..

وصل إلى هناك و غير ثيابه ليرتدي ثياب العمل..كان الجو جد بارد، فرك يديه ليمنحهما قليلا من الدفء.. لقد صارتا خشنتين جدا منذ بدءه هذا العمل... فحَمْل أكياس الإسمنت و الآجر قد أكسبهما خشونة قاسية.

تأمل مليًّا الورشة و حالته هذه..و عاد به شريط الذكريات إلى الوراء يوم ذهب إلى وكالة التشغيل حاملا شهادته الجامعية، باحثا عن عمل بعد أن طرق جميع الأبواب ..يومها قدم شهادته للموظف الذي أخبره أن لا عمل يتناسب و شهادته متوفر عندهم..كان حينها يحتاج بشدة لأي باب رزق ، فقد تجاوز الخامسة و العشرين، و لم تعد كرامته تحتمل أن تمنحه والدته المصروف و أن يأكل من تعب والده..فقال للموظف في يأس « سأقبل بأي عمل!» عندها اقترح عليه العمل في ورشة البناء ..فوافق دون تلكأ، ذلك أن والده علمه يوما أن الوطن لا يبنى فقط بالورق إنما بالعرق..و الوطن لا يحتاج إلى شهادات عاطلة بل إلى سواعد عاملة.

منذ أن قال له والده هذا الكلام استقر في نفسه دون أن يفكر حتى في مدى صحته.. فسنوات دراسته صارت الآن دون جدوى و قد انتهى به الأمر عاملا في ورشة بناء..

لم يتوقع أبدا حينما أنهى دراسته أن السبل ستقوده لهذا العمل البائس و الشاق ، حيث الشمس تحرق جسده، و الغبار يملأ رئتيه.

استفاق من غفوته هذه على ضجيج العمال فالتحق سريعا بعمله ..

obeikandl.com

لم يخبر أحدا في الورشة انه جامعي حامل شهادة، ذلك انه لم يشأ أن يشفق عليه احد هناك، زد أن في قلبه تقديرا للعلم الذي تلقنه يترفع به عن سماع تعليقات من نحو « ها هي نهاية من تعلم و درس في هذا الوطن»..

و بين أهله وجيرانه ومعارفه لم يخبر أحدا أيضا أنه يعمل في ورشة بناء، حتى لا يتشفى فيه و لا يشار إليه بالبنان و يضرب به المثل في عدم جدوى مواصلة الدراسة..

كان يتحرج من أن يكون الجامعي في الورشة، و العامل البسيط في محيطه لأن مجتمعه لا يقبل أمرا كهذا..ففي تصوره هذان تناقضان لا يمكن أن يجتمعا في شخص واحد..لكنه كان هما معا و في آن واحد" الجامعي العامل".. و كان عليه أن يخفي طبيعته هذه لأنها مرفوضة في مجتمع يصنف العمل إلى رفيع و وضيع و ينسى أن البطالة أوضع..

و الحق يقال أن هذا العمل الذي يراه الكثيرون «وضيع» قد منحه شعورا بالرضا و الكرامة لأنه لا يستجدي أحدا ، وهذا العمل الذي أكسب يديه خشونة قد صقل روحه ومنحه كرامة يراها الناس ذلة..إلا أنه في كثير من الأحيان كان يحز في نفسه رؤية من لا مستوى علمي لهم يحوزون المناصب الهامة فيحس بطعم الظلم في حلقه و يتجرعه على مضض.

في طريق عودته إلى البيت، كان الليل قد استقر في المدينة و الرضا قد استقر في روحه..و كالعادة لم تكن أجرته كبيرة لكن باله كان هادئا لأنه في ذلك الظلام و حيث لا احد يراه كان «الجامعي العامل» معا و كان مرتاحا لهذا غير خجلٍ لأنه تعلّم و من بين ما تعلّمه أن « خادم القوم سيدهم ، و سيّد القوم خادمهم» و كان هو السيد و الخادم معا..

دخل بيتهم و أغلق الباب و ترك امتداد ظله المنير خارجا عسى أن ينير الظلمة خلفه.

obeikandl.com

بأي ذنب أُخذت

كانت نتائجها الدراسية ممتازة، فقد كانت تحب الدراسة و تبذل مجهودا لتكون دائما الأولى في صفها.. ما جعلها تنال شهادة التعليم الابتدائي بتقدير ممتاز و قد أقيمت حفلة صغيرة على شرفها و تحصلت على الكثير من الهدايا.

انتقلت إلى المدرسة المتوسطة و في أول حصة لها أجلستها المعلمة مع تلميذة أخرى لا تعرفها..لكن حبّا بريئا كبراءتهما نشأ بينهما مبشرا بصداقة عمر..كانت سعيدة بهذا و كلما عادت من المدرسة لا تتحدث إلا عن صديقتها الجديدة، فتعيش مساءها في انتظار الصباح الموالي لتلتقي بها مرة أخرى..

في الصباح، كعادتها عندما تصل إلى المدرسة..تبحث أولا عنها..ها هي تتراءى لها من بعيد، فتركض نحوها، لكن هذه المرة لم تبادلها صديقتها الشغف المعتاد بلقائها فقد ظلت ثابتة مكانها.. وصلت عندها فقرأت أسطرا من الحزن ..سألتها: « ما بك؟ هل أنت مريضة؟!!»

-« لا» أجابت

-« ما بك إذن؟»

-« لا شيء..لكن لا يجب أن نكون صديقتين»

فجأة بددت هذه الكلمات سعادتها و اختفى صوتها لبرهة فظلت تبحث عنه حتى استرجعته

-« و لما لا يجب ذلك؟»

-« أمي تقول أنك لقيطة و أنا لا يجب أن أصادق اللقيطات»

بحثت في رأسها عن معنى الكلمة فلم تجده..وهذا التراص الغريب لهذه الأحرف بدا نشازا على مسامعها، فهي لم تسمع بمثل هذه الكلمة من قبل

-« لكني لم أفعل شيئا سيئا إطلاقا» أجابت ببراءة من يدفع عنه تهمة لا يعرف حتى ما هي..

obeikandl.com

-« لكنك لقيطة!!» أعادت لفظ الكلمة مرة أخرى..لفظتها بقوة هذه المرة و أخرجت القاف من أعمق نقطة في حلقها لتشحن الكلمة بخطايا أكبر فتوحي بأنها شيء سيئ..

-« وما معنى هذا؟» تساءلت و الدموع في صوتها

-« أمي تقول أن اهلك رموك في الشارع لأنك ابنة حرام، فأخذك الناس إلى دار الرعاية » قالت جملتها هذه أمام مجموعة من البنات.

حتى هذه لا تعلم حقيقة معنى كلماتها، هي تعيد عن ظهر قلب أقوال أمها، و بعض الأمهات يجيدون تلويث جمال فطرة أبناءهم بشيء من اللؤم.

لم تحتمل وطأة هذه الحقيقة المرة..فركضت عائدة للمركز، بدا المركز بعيد جدا و الزمن ثقيل و دموعها لا تنفذ..كان هذا أول لقاء لها مع حزن لا يتلاشى بنسمات فرح خفيفة..كان هذا لقاءها مع حزنها الأزلي الأبدي..

ركضت و هي تبكي لأنها ارتكبت سوءا قبل أن تولد و لهذا رماها أهلها..

ركضت لأنها ارتكبت خطيئة قبل أن تولد و لهذا هي ابنة حرام..

لقد قالوا لها في المركز أن أهلها سافروا و تركوها هنا و سيعودون لأخذها قريبا..فكانت تعيش على أمل عودتهم..و ها هي اليوم تكتشف أنها كانت تعيش كذبة الحقيقة الوحيدة فيها أنها منبوذة من الجميع و السبب لا تعرفه لكنه التصق بها و لا سبيل إلى الخلاص منه..

تساءلت « ما الأمر السيئ الذي ارتكبته حتى لا يحبني أهلي، أنا لم آخذ ما ليس لي و لم أكذب و كنت أدرس جيدا»

لازال عقلها الصغير لم يستوعب بعد حجم مأساتها...مأساتها التي ستبقى تتسع كلما زاد عمرها يوما..

هي الآن لا تدرك أنها ستحمل لما تبقى من حياتها وزر اثنين نسيا نفسيهما في تأجج شهواتهما..هو واصل حياته كأن لم يلقي ماءه في رحم امرأة..و هي بعد عناء مرير و بعد أن وضعت هذه الطفلة إلى الحياة، قررت التخلص منها لتمارس حق استمرارها في الحياة، فوجدا

لنفسيهما أوراقا تستر عوراتهما و تركاها هي عارية تحاصرها الاتهامات من كل جانب و يثقل كاهلها وزر لم ترتكبه.

وصلت أمام باب المركز، وقفت مليا و تأملت الكتابة فوقه « مركز الطفولة المسعفة» فتساءلت عن معنى كلمة « مسعفة»..قد تكون كلمة سوء أيضا كلقيطة..

دخلت بعد أن لملمت امتداد ظلها و أوصدت خلفها باب المكان الوحيد الآمن، حيث لا أحد يحاججها..و لا أحد يحاكمها و يقسو عليها من اجل ذنب لم تقترفه.

obeikandl.com

«إنحاءة الدهر»

كان كل يوم يجلس في المكان نفسه يستعيد ذكرياته..يتصفحها ذكرى ذكرى.. يمتلئ قلبه بالحسرة فتفيض من عينيه ..ثم ينهض و يحاول تركها على المقعد لكنها تلحقه..يمشي بخطى أثقلتها خيبات عُمرٍ..يبحث في الوجوه عن شيء يشبهه..فلا يجد..كل شيء قد تغير..

يتذمر المارة من خطواته المثقلة، فوحده كان يفسد تناغم سيرهم بإيقاعه البطيء..يحس بالإحراج فينزوي إلى حواف الطرقات كي يعود إلى مأواه و في سره كان يتمنى أن يعود إلى زمنه أو ربما أن يعود الزمن إليه..

عاد إلى مأواه..المكان الوحيد الذي احتواه يوم قرر أبناؤه أن لا حاجة لهم به..يوم صار عبئا على من حملهم على كاهله و خبأهم في طيات قلبه..

عندما اخبره ابنه أنه قد حجز له في « دار العجزة» تساقطت روحه على الأرض و وحده كبرياؤه ظل واقفا يستر ضعفه..في تلك اللحظة جال بفكره حول الموضوع ..أراد أن يقول لابنه « سأستأجر بيتا لوحدي» ليحفظ بهذه الجملة شيئا من هيبته ، لكنه لا يملك المال لهذا و منحته لا تسد شيئا ..

آآآه!! كم يُذّل الإنسان إن فرغت جيوبه ..و كم يغطي المال من عورات..

ها هو في أقسى تجليات ضعفه عارٍ لم يملك ما يستر به عزة نفسه فانصاع..

جمع حقيبته ليغادر بيتا بناه لبنة لبنة و اليوم يضيق بجدرانه عليه..جلس على حافة سريره كمن صار يستحي أن يستهلك أشياءه..تأمل مليا غرفته، ليخزّن في حنايا ذاكرته تفاصيل حياة سيغادرها قبل أن يُغادرها..

جاء ابنه ليأخذه و هو يهرب بنظراته أن تلتقي بنظرات والده..ثم حاول أن يخفف من وطأة الألم عنه « لا تقلق يا أبي، ستكون بخير ، لقد تفقدت كل شيء هناك، المكان جميل و نظيف ، الأكل طيب و ستتعرف على أصحاب جدد » جاء كلامه هذا لا ليخفف الم والده بل ليخفف وخز ضميره هو..

أثارت سخريته فكرة أن يتعرف على أصحاب جدد و فكر في نفسه « لقد سدّ من خرجوا من صلبي رغبتي في بناء علاقات إنسانية جديدة..فعندما تطعن من الخلف سينكسر ظهرک، لكن عندما تطعن من الداخل «من الصلب» فإنک ستبقى تنزف حتى الموت»

نظر إلى الساعة ..إنها الثانية عشر وقت الغداء..اليوم سيقدمون وجبة عائلية..

«هل سيقدمون لنا العائلة على طبق أم أن الطبق سيمنحنا عائلة؟» لا يهم حقيقة..بعد انحناءة ظهره انحنى دهره و لم يعد شيء يهم..

سحب تنهيدة عميقة من قرار نفسه ،سحبت معها امتداد ظله الذي ثَقُل و أثقله.

obeikandl.com

على أعتاب العمر

كان خط حياتها قد سُطّر لها و لا مجال لأن تحيد عنه..قرر والدها في غمرة غيرة مزيفة أن يوقفها عن الدراسة « ليس للمرأة سوى بيت زوجها» فجاء الزوج و البيت و السيارة أيضا..

صفقة رابحة..لم يستشر أحدا فزوجها..

كان الزواج حينها فستانا و عرسا و رجلا يجر اسمها باسمه.. فلم تستوعب الأمر جيدا و سرّت لهروبها من سلطة رجل تعرفه إلى رجل لا تعرفه.

و ما هي إلا أشهر قليلة حتى جرّها الذي جرّ اسمها باسمه إلى المحاكم، لتعود مرة أخرى إلى بيت أبيها بصفة أثقل.. «مطلّقة».

هذه المرة لم يعد والدها قلقا عليها بل صار وجودها يزعجه..يحاول دائما أن يتفاداها.. بعد أن ظن أنه قد اطمأن عليها ها هي تعود لتعكر طمأنينته و تفسد عليه صفقات زواج أخواتها..فوجود مطلقة في أسرة ما سبب كفيل بطرد العرسان ..لا أحد يرغب في أن يناسب عائلة كهذه و لعنة المجتمع التي حلت عليها لاشك مصيبة أخواتها..

ففي مجتمع كهذا تقول القاعدة «المرأة تطلق لعيب فيها لا في الرجل»..و لأنه أيضا مجتمع يحب إجراء علاقات التعدي ، فإن عيبها المزعوم هذا سيتعدى إلى أخواتها أيضا..

لم يؤلمها أن تطلّق بقدر ما آلمها ذلك الشعور بالوحشة في بيت شبّت فيه...تمنت في نفسها لو أنها أكملت تعليمها ربما كانت ستجد عملا يذر عليها مالا و يسكت أفواها..

لكن ما لا تعلمه أن والده لن يهدأ باله حتى يعقد لها صفقة أخرى، و لن يغيّر من طريقته ..فكعادته سيعقدها دون مشورتها..

و لأنها مطلقة فهذا يعني أنها امرأة من درجة ثانية أو كما يفكر الكثيرون دون أن يملكوا الجرأة في البوح به « هي سلعة مستعملة»..و الفئة التي ستقبل على هذه السلعة هي فئة الشيوخ المتقاعدين ، الأرامل و المطلقين..هكذا تقول قوانين البيع و الشراء أو ما يعرف بصفقات الزواج..

و أخيرا سيرتاح والدها من همها و لا يهمه إن ارتاحت هي أم لا!! سيزوجها من شيخ متقاعد.. و حتى في هذه المرة لن يسمح لها بالرفض لأنها حسبه محظوظة لحصولها على فرصة ثانية..

هذه المرة اقتنعت أنه سيكون زواجا دون رجعة ..سيكون عليها أن تشرب الموت على جرعات يومية و لا تفكر بالعودة إلى بيت أهلها..أن تمنح نفسها قربانا لألسنة الناس ليرضوا عن أخواتها و يباركوهن..

لم تزل شابة على أعتاب العشرين و من قريناتها من لم يتزوجن بعد..و ها هي الآن تُدفن مع شيخ يكبرها بأجيال لا لشيء إلا لأن أحكام والدها قضت بأن لا حق للحظ أن يبتسم لها أخرى..

رضت بالأمر الواقع..و الحقيقة أنها لم ترض فلم يسأل عن رأيها أحد إنما انصاعت و قبلت و سيقت إلى رجل استيقظت شهوته على حافة عمره ..

ساقوها إليه ..البسوها الأبيض لمرة أخرى..و لا أحد انتبه إلى امتداد ظلها الذي ظل يسوّد حزنا و قهرا.

obeikandl.com

«عزلة»

جلس وحيدا في غرفته ..اخذ ورقة خطّ فيها « اليوم السابع بعد المائة»، بعد أن انفض الجميع عنه قرّر أن يتسلى بعادة جديدة « عدّ ما تبقى له من أيام في هذه الدنيا» و ها قد مرت مائة و سبعة أيام..

كان يحس الغرفة باردة كعظامه و قلبه من جليد بعد أن خبا دفء الحنان الذي كان يستمده من أهله قبل أن ينبذوه..

فما عادت لهم رغبة في الإبقاء على أي صلة به، فظلوا يقطعونها رابطا رابطا، حتى إذا ظل خيط رفيع ثارت غريزة والدته لتبقيه معها في البيت و تمنحه غرفة و هذا كل ما يستحق..

كانت منضدته مليئة بالأدوية ، و نفسه بالانكسارات و روحه بالانتكاسات، فمنذ أن حلّت عليه هذه اللعنة انقلبت حياته و انقلب معها كيانه ..

تذكر يوم قرأت الطبيبة تحاليله فتغير لونها و نظرت إليه بكل شفقة الكون، حينها اعتقد أنه يحمل مرضا خطيرا ..فكر في السرطان و لا شيء غيره، لكنه نطقت بغيره: « أنت مريض بالسيدا»

توقف كل شيء حينها ، حتى قلبه توقف عن النبض و ظل معلقا بين حروف الكلمة..كانت الطبيبة تتكلم لكنه لا يفهم شيئا مما تقوله .. وحدها شفتاها كانتا تتحركان..

لا يتذكر كيف خرج حينها من عيادتها..كيف مشى في الشوارع..كيف وجد نفسه في مكان لا يعرفه..كيف تجمدت الدموع في عينيه، فظن لوهلة أن السيدا يجمد الدموع، ثم انهمرت فلم يملك إيقافها.. بكى كما لم يبكي يوما في حياته..بكى كثكلى و كأرملة و كطفل صغير و ما حسب يوما أن بإمكان رجل أن يمتلك كل هذه الدموع..

انتهت أخيرا نوبة بكاءه، لا لنفاد دموعه بل لاستفاقة عقله، فتذكر أنه لم يقم علاقة مع امرأة يوما و لابد أن التحاليل خاطئة أو هي لشخص آخر، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة و استعاد أنفاسه مع هذه الفكرة..

أعاد التحاليل ثانية و ثالثة و رابعة قبل أن يستسلم و يقتنع بالحقيقة عند المرة السابعة، عندها أدرك أن المرض قد انتقل إليه عن طريق آخر، و لكن كيف له أن يعرف و أنى لأهله أن يقتنعوا بهذا..

كان الخبر صدمة للجميع ، و جاءت ردة فعلهم صدمة له وحده..ما اعتقد يوما أنهم سينفضون من حوله و يتركوه وحيدا يصارع المرض..هذا المرض الذي سيدخله في صراع مع جسده و نفسه و كل شيء..

هو الآن يصارع ما سبق و ما هو لاحق ، فعليه أن يبرئ نفسه من تهمة في حين أنه الضحية..أن يقنعهم أنه ما أقام علاقة، لكنه السيدا، و اسمه وحده مشحون بالتهم..و عليه أيضا أن يقنعهم أن تعاملهم معه مستقبلا لن ينقل لهم العدوى..لكن هيهات!!

لم يعد أحد يرغب في الاقتراب منه، كاد والده أن يطرده لأنه جلب العار للعائلة و قال له تلك الجملة الشهيرة « ماذا سيقول الناس عنا ؟»، لكن والدته خففت هذه العقوبة بأن جعلت له غرفة و عزلت كل أشياءه، و حتى هي فعلت هذا لخوف من كلام الناس أكثر من خوفها على ولدها..

لما يتغلغل الناس بكلامهم في كل تفاصيل حياتنا، يتشربون تفكيرنا.. « الناس» الصنم الذي يعبد ليلا و نهارا، سرا و علنا و كم من قرابين تقدم على مذبحه..نتقرب بسعادتنا و رضانا و فلذات أكبادنا..

ظل هناك في غرفة معزولة، كل شيء يقدم له من بعيد..حتى الكلام يقدم له نادرا و بجمل محدودة و كأن المرض ينتقل عبر الكلمات..

فقرر أن منذ ذلك الحين أن يعد ما تبقى له من أيام كسجين ينتظر ساعة الإفراج عنه، و أن يعيد سحب امتداد ظله إلى مكامن روحه.

من سقطت مروءتهم

obeikandl.com

إن نهضت صباحاً، ولم تجد الآخرين معك

يفركون جفونك، قل للبصيرة: شكراً!

محمود درويش

obeikandl.com

« العطر الفاخر»

ارتدى بدلته الجديدة..أحاط عنقه بربطة تتماشى معها..ارتدى ساعة الرولكس لتضيف لمسة فخمة على مظهره..انتعل حذاءً لامعا و رش الكثير من العطر الفاخر.. ركب سيارته و توجه إلى العمل..

لم يكن بحاجة إلى النظر إلى الساعة أو التدقيق في مواعيد عمله، لقد كان المسؤول الأول و ليس لأحد أن يحاسبه.

اكسبه منصبه هذا قسوة في ملامحه فلم تعد الابتسامة تجد طريقا إلى وجهه، و لا عاد يبادل أحدا التحية.. يمشي بخطوات واثقة إلى مكتبه، وحده يسمع صدى وقعها على الأرض.. يتخيل أن الأرض تهتز من تحته فينتفش غروره..

يجلس خلف مكتبه على ذلك الكرسي الفخم الذي يأبى كل من يجلس عليه أن يغادره إلا لما هو أفخم منه.. لما تملك الكراسي كل هذا الإغراء في النفوس حتى تغيّرها؟ لا ندري ربما علينا أن نجرب دفء الجلوس عليها لنرى مفعولها السحري على نفوسنا أيضا..

يقضي يومه في عقد الصفقات، ثلثها للشركة و الثلثين له، بين صفقة و أخرى يزيّن يومه بإلقاء بعض الشتائم الجارحة على الموظفين كجزء حسب رأيه من عمله، هو الذي كان يوما موظفا و كان يكره هذه التصرفات..ها هو اليوم يأتيها فهل رأى نفسه الجديدة؟ أم أن فخامة الكرسي قد حجبت عنه الرؤيا..

يتوهم الناس أنهم لن يتغيروا إن أقبلت يوما عليهم الدنيا..لكن للدنيا قوانين و هي تعقد مع البشر صفقات فلا تمنح حتى تأخذ ، و البعض ينبهر بإغراءاتها فينسى ما الذي قدمه لها في هذه الصفقة..

هو قدم تلك الرحمة التي عمّرت يوما قلبه مقابل كرسي فحازه.

عندما تقلّد المنصب حديثا لم يحس بالتغيير في نفسه، و لكنه لا يدري أنها لا تغير الناس بل تحتلهم..

obeikandl.com

و ظلت تحتله و حصونه تسقط قلعة بعد قلعة ، حتى استفاق يوما و رايتها ترفرف عليه..

لم يكن المال هو الذي غيره إنما السلطة..أحس أن أمره يسري على هذا العدد من البشر..تتوقف على توقيعه مصالح..جرّة قلمه تحدد المصائر، كبر في نفسه شيء أعجب به..

كم يحب البشر السلطة!! تجعلهم آلهة صغيرة ..ترفعهم عن غيرهم و تعلو بهم.. يخافون المرتفعات لكنهم يحبونها في المناصب..تعجبهم رؤية الآخرين صغار من ذلك الارتفاع..

يؤمنون بالمساواة و ينادون بها إذا كانت تخدمهم، و يلقونها إذا ما عادوا في حاجتها.

أعجبته الأبهة و الطريقة التي صار الجميع يعامله بها ، رؤيته لصغار البشر يتملقونه كانت ترضي غروره.. مقعده في الملتقيات يحجز في الصف الأول و كذلك في المساجد..يشير إليه الجميع بالبنان ..لا يمشي اسمه متفردا بل في موكب من عبارات الاحترام و التقدير و السمو..

هاتفه لا يتوقف على الرنين، فيحس أن مقاليد السماء بيده و يتضخم لديه هذا الشعور على طول الرنة، الكل يحتاجه ليقضي مصالحه، فيقضي فقط لمن يرضى عنه ..

فهل حقا هي الدنيا التي غيّرته أم أن أولئك الذين تقربوا إليه كرّب هم من قتلوا الإنسان داخله؟

ركب سيارته و في طريق عودته لم يكن يرى إلا ما يمليه عليه منصبه ، كان يرى الشوارع بما يليق و وضعه لا بما هي على الحقيقة..دخل إلى بيته و قد طمست الأضواء كل امتداد لظله.

«سمكة وراء سمكة»

طلبت من والدها أن يشتري لها سيارة إن هي انتقلت إلى الجامعة..فلم يكن لها إلا عناء اختيار اللـون... فقـد كانـت طلباتهـا مجابـة..لـم تتمنـى شـيئا إلا نالتـه، فقـد كانـت أميـرة والـدها الصغيرة..لم تصل يوما إلى مرحلة البكاء على أمر فقد كان ينفذ قبل أن تتلفظ به..

عندما كانت صغيرة أرادت أن تربي سمكة..فما كان من والدها إلا أن أحضر لها واحدة. ظلت لساعات تتأمل تلك السمكة ثم قررت أن تحممها فوضعت الكثير من الشامبو في الحوض لتختنق السمكة وتموت..

بكت ليلتها بأعلى صوتها و انتحبت..فخرج والدها يبحث عن محل يبيع الأسماك ليشتري لها واحدة بأي ثمن، فكل أسماك الأرض فداء لدموع ابنته، حينها علّمها دون أن يدري أن لابأس من أن يموت الكثيرون مقابل أن لا تبكي !!

مات بعد تلك السمكة أسماك أخر، ففي كل مرة تقتل واحدة ترفع قليلا صوتها فيأتي لها بأخرى، ثم قرّرت الانتقال إلى القطط هذه المرة لتملّها بعد فترة و تنتقل إلى أمر آخر..

كبرت و كبر معها حب ذاتها، و لم يعد ضحاياها من الأسماك أو العصافير أو القطط، بل صاروا مِن مَن حولها و المقربين لهـا.. كانـت مشـاعرهم آخـر اهتماماتهـا، تـدوس عليهـا دون أن تشعر..لأنها كانت تعتقد أنها الوحيدة التي يجب أن لا تبكي..

هكذا علمها والدها، لم يكن يسمح لبكائها أن يطول حتى ينفذ رغباتها ، فكبرت و لم تتشكل لديها مناعة ضد حرقة الدموع..

عندما انطلقت إلى العالم الخارجي، اكتشفت أنها لا تحظى من الناس بنفس الاهتمام الذي يحيطها به والدها، و أن أرادت أمرا فلا احد سيركض لتلبيته.. صدمها هذا التجاهل..صدمها أن لا تكون محط الأنظار و أن لا يسعى الجميع لإرضائه، ففسرت الأمر أن لا أحد يحبها، عندها قررت أن لا أحد يستحق حبها سوى والدها و دون وعي بدأت تنتقم لذلك الشيء الذي كسر داخلها، و قد جعلها دلال والدها لها جد هشة من الداخل..

obeikandi.com

قررت منذ ذلك الحين أن تلف نفسها بالكثير من الأشياء الثمينة: ملابس فاخرة، هواتف آخر صيحة، عطور و مجوهرات باهظة الثمن لتوحي بمظهرها هذا أنها قوية و ليست بحاجة لأحد..

صارت تقتني الأصدقاء كالملابس، فإذا ملت من أحد فعلت به كما كانت تفعل بالسمكة، ثم تبحث عن آخر جديد..هكذا تعلمت ، فهناك دائما المزيد..لا يهم كيف و من أين، لكن إن أرادت سمكة أو صديق فسيأتي!!

عندما نكبر تكبر بداخلنا النزعات و قد يأتي يوم تلتهمنا فيه، مع الوقت كبر فيها حب التملك و نزعة «الغاية تبرر الوسيلة»، لم يعد يهمها كيف تصل إلى ما تريد بل المهم أن تصل، أن تكتم أصوات الرغبة في داخلها..

و مع الوقت تحولت إلى شخص قاس لا لأنها كانت سيئة من الداخل، بل لأن والدها أخطأ يوما و علمها -دون أن يدري- أن الحب هو تنفيذ طلباتها و إشباع رغباتها، فلم تقتنع بغير هذا، لأنها لم تتعرف على غيره..

أصبحت شريرة و لئيمة، و قد تكون هذه طريقتها في أن تحمي هشاشتها، و تقي نفسها من الألم..

عادت إلى بيتها بعد أن ألقت بعض الأسماك عن طريقها..و في الحديقة جلست تحيك الخطط في رأسها و المؤامرات لتصل إلى مبتغاها، و كانت رغباتها تخترق امتداد ظلها كالرصاص فترديه قتيلا.

obeikandl.com

«بائع الوهم»

« إن الاتصال بمراسلكم غير ممكن، قد يكون جهاز مراسلكم مغلق أو خارج مجال التغطية، يرجى إعادة المحاولة بعد حين»

كانت هذه الجملة كل ما سمعته لأيام حتى كادت تجن ..حاولت الوصول إليه، بحثت عنه في الكلية التي قال أنه يدرس فيها، في المكان الذي قال أنه يسكن فيه، لكن لا سبيل إلى الوصول إليه!!!

عل الطرف الآخر كان هو يعقد علاقات جديدة..مع فتيات أخر.

بمجرد أن قطع علاقته بها غيّر رقم هاتفه، و كان هذا هو كل عناءه، فلم تجد له بعد ذلك آثرا و قد كان بارعا في محو آثاره..

لم تكن هي الضحية الأولى، كانت الرقم.......، لا يدري فلكثرة عددهن لم يعد يعدّ ..و لا حتى يهتم!!

كان يحب التغيير...يمّل بسرعة و يرغب دائما بالبديل. هواياته الإيقاع بالفتيات، و تعجبه أكثر المستعصيات، يرى فيهن تحدٍ يجب كسره، و في كل مرة كان يثبت لنفسه أن لا شيء يعجزه..

كان من السهل عليه أن ينتقل من فتاة إلى أخرى دون أن يوخزه ضميره..أن يمسح بمشاعرهن أقدامه..

لم يكن يحرك فيه منظر دموعهن أية مشاعر، لأنه لم يسمح لأي واحدة منهن أن تخترق كل الغشاوات المحيطة به لتصل إلى لبه..

كان لا يمنحهن منه سوى السراب و الوهم، و لا ينتهي منهم إلا بعد أن يصل إلى أعمق نقطة فيهن..

ربما لأن والدته تركته طفلا و قررت أن تواصل حياتها بعد طلاقها من والده.. فظل ذلك الطفل وحيدا حتى تجمدّت مشاعره..

تخلي والدته عنه جعله يكره كل الأمهات..ثم تطور الأمر فصار يكره كل النساء..

يكفر بكل حنان الأمهات..و لا يصدق مشاعر امرأة..

كان طفلا صغيرا و رحيل والدته كسر بداخله شيئا عميقا و أفقده الثقة في الجميع ، فالتي غذته من روحها غادرته و هشمت روحه.. حينها وقع في اضطراب هل تركته لأنه كان عبئا عليها أم تركته لأنها كانت أنانية..

في البداية ظن أنه كان عبئا فانكب على نفسه يجلدها لأنه آذى أقرب الناس إليه..والدته، و لما فرغ من التعذيب و إنكار الذات انقلب الأمر و اجتاحته قناعة بأنها هي من كانت أنانية..

حينها قرّر أن ينتقم منها و من رحيلها و من سنوات إنكار الذات!!

حينها قرّر أن لا امرأة تستحق أن تشغل حيزا من تفكيره، فكيف بقلبه..

اقتنع أن مشاعر النساء كذبة صدّقها الجميع، لأنه لم يتعرف على هذه المشاعر في حياته..

لم يكن يشعر أنه ينتقم ..بل كان يظن انه فقط ذكي بما فيه الكفاية حتى لا يصدق كذب النساء..

على الطرف الأخر..كانت ضحاياه يحاولن الاتصال به ليصلح ما أفسده و يرقع ما رتقه..

و على طرف ثالث، كانت له ابن أو ابنة تبكي قدرها في « دار طفولة مسعفة» و تلعن من أنجباها..

فلا أحد يبقى ضحية للأبد

...

أطفأ نور غرفته و هاتفه و ضميره..استلقى على فراشه و غط في نوم عميق.. و انقشع امتداد ظله كالوهم الذي يبيعه في عتمة تلك الغرفة..

الناس معادن

استيقظت و هي متعبة من سهرت الأمس..كانت ليلة طويلة و لم تكن لتفوّتها عل كل حال. ارتدت ملابس فاخرة و انطلقت لممارسة نشاطاتها الاجتماعية و الخيرية..فهي الآن من « الطبقة الراقية» «صفوة المجتمع» و يجب أن يكون لها نشاطات تبرز من خلالها إلى الملأ.

منذ أن تمت ترقية زوجها لمنصب مرموق تغيّرت حياتها و اكتسبت عادات جديدة، حينها فقط أحست أنها ولدت من جديد و أنها خرجت من ظلمة الفقر إلى نور الغنى، فمقارنة بوضعها الجديد كان ما عاشته فقرا..

في السابق كانت تعيش في شقة بسيطة مع زوجها و ثلاثة أبناء، ثم هبت عليهم رياح الثراء فحملتهم من تلك الشقة إلى فيلا فخمة في حي راق ..فما كان عليها إلا تعيد تأثيث قلبها و روحها بعد أن تفرغه من كل الأغراض البالية..غيرت صديقاتها..أنكرت جيرانها و قطعت الصلة بأقاربها، لأنهم ببساطة لا يلاءمون وضعها الجديد.. وضع جديد يستلزم علاقات جديدة..

وظل التغيير يزحف بجيوشه عليها حتى جعلها شخصا آخر...و في الوقت الذي تسلل المال فيه إلى جيبها تسلل الجليد إلى روحها فتجمدت مشاعرها..

هذه المرأة التي كانت يوما تبكي الفقير و المسكين، هي اليوم تبخل عليهم بالعبرة و النظرة..

هل كانت تشفق على الفقير لأن قلبها يفيض بالرحمة؟، أم أن الرحمة كانت لباسا يليق بوضعها المعيشي في ذلك الوقت؟!!

هل يغرينا المال فيغيرنا أم انه فقط يختبر معدننا، يسقط أقنعتنا و يفضح حقيقتنا ؟؟

ربما هي لا تزال في طور الاختبار، و مازال معدنها يصهر..ربما هناك في زوايا هذه الروح لا يزال نور خافت يرسل دفئه..

قد يكون المال قد رحل بها إلى الطرف النقيض في نفسها ليعود بها مرة أخرى، ربما أظهر سوء ما فيها ليطهرها مرة أخرى..

obeikandl.com

و ربما كل هذه توهمات!! ربما هذه هي حقيقتها تتجلى الآن..امرأة قاسية لا تعرف الرحمة الطريق إلى قلبها..امرأة أكبر همومها ثوب و قرط و حذاء..

لعلّ حقيقتها هكذا، براقة من الخارج، مظلمة و خالية من الداخل.. امرأة تحب الظهور، لا تأتي صنيعا حسنا إلى إذا سلطت عليه الأضواء..

قد تكون امرأة لا تستهلك عاطفتها إلا بمقابل..لا تريق عبرتها إلا إن جلبت لها منفعة..

من هي هذه المرأة الزئبق..التي تفجرت عاطفتها إلى درجة المائة ..ثم تجمدت تحت الصفر..

ذهبت إلى مصففة الشعر.. جلست هناك لساعات ثم عادت لتحضر نفسها لحفل آخر.. ارتدت كعادتها أفخر ما عندها لتكون نجمة السهرة..ركبت سيارتها و انطلقت إلى مجتمع الرفاهية تاركتا خلفها امتداد ظلها محتجزا في ماضيها القديم.

obeikandl.com

«المئزر الأبيض»

كان يعجبه المئزر الأبيض..يمنحه هيئة موقرة، كانت هذه الهيئة هي دفعته لاختيار الطب، يحب عندما يناديه الناس «حكيم» أو «دكتور» ..فللألقاب هيبة و وقار..كان الطب لديه منصب و لقب يستمد منه احترام الناس له و تقديرهم ...و كذلك أموالهم.

كان المئزر لطبيب و القلب لتاجر، لا يهمه وجع المريض بقدر جيبه، فلا يستقبل المريض إلا إذا استطاع أن يدفع مستحقاته، و من لم يستطع لا داعي أن يقف أساسا على بابه.

في بداية مسيرته المهنية كان يعمل في مستشفى حكومي، هناك حيث يأتي الفقراء الذين لا طائل من وراءهم، هذا كان اعتقاده، و لأنه لم يكن يملك الحق في أخذ أموال منهم – بل يعالجهم مجانا و هذا ما كان مقتنعا به- قرر أن يستفيد من « وظيفته» بشكل آخر..صار ينتقي عيّنة مرضاه فلا يستقبل إلا أولئك الذين يجرون إليه مصلحة، و يلهث في خدمتهم و لأن القانون الذي تواطأ عليه الجميع « الخدمة بالخدمة و المعروف بالمعروف و البادي أكرم» فقد كان دائما يضمن ردهم لصنيعه و زيادة ..أما أولئك الذين لا مصلحة من ورائهم فما كانت تتحرك اتجاههم مشاعره و لو تعفنوا أمامه..

بعد الصفقات التي عقدها مع أناس كانوا يتكئون على جدار الموت البارد استطاع أن يؤسس عيادته الخاصة أن يصنع لنفسه اسما و شهرة و ثراء..

كان يسحب من إنسانيته و يضخ في حسابه في البنك لا يهتز بداخله شيء. بالرغم من أن طبيعة مهنته تجعله يعايش الألم كل يوم.. يلمس المعاناة كل يوم ، ينظر في عيون الموت كل يوم إلا أن هذا لم يكن يزعزعه فقد كان قلبه -كما يقول عنه المرضى- « ميتا»..

هو الذي كان يضع سماعته لينصت إلى دقات القلب المتراصة..و كم من قلوب سمع صوتها فهل نسي أن يضع السماعة على صدره لينصت لقلبه هل مازال يخفق أم لا..

عندما كان يتقلب ليلا في فراشه ألم تكن صور الألم التي يراها كل يوم تتدحرج في ذاكرته لتصدر صخبا يوقظ القلب!!

obeikandl.com

لكن لا احد يولد قاس..و لا أحد تتبدد إنسانيته فجأة، كلنا نولد برصيد الإنسانية نفسه ، البعض يستثمر فيه فيربو و يزهر و البعض الآخر يستهلكه حتى ينفد.

و حتما كان له هذا الرصيد يوما ما و علّه بدأ ينمو و تظهره براعمه الأولى قبل أن تعصف به صروف الدهر .. قد تكون الظروف أتت على إنسانيته و استهلكتها جميعا فلم تبق له منها شيء.

قد تكون تلك الظروف هي التي حرّكت بداخله مشاعر الانتقام ..الانتقام ممن و لمن؟ هو نفسه لا يدري.. ربما هو ينتقم من القدر و من الظروف التي اجتاحته و تركته شخصا آخر.. لكن كل من يدخل في نزال مع القدر يخسر..

هو أراد أن يرّد على القدر بالمنصب و المال و الصيت..أن يشهرها أسلحة في وجهه و يقول له «انظر إلي و ما فعلت..جورك عليّ لم يكسرني و أنا اليوم أقوى»

لكنه أغفل أنه يطغى علينا.. يغمرنا من كل جانب، و إن ظن بخيلاء أنه يقف في وجهه فإن القدر خلفه يبتسم..و إن اغتر بما في يديه من منصب ومال و صيت فهي أسلحة القدر التي منحها إياه مقابل إنسانية كان يخفق بها قلبه..

ها هو يمسك السلاح في يديه..يصوب نحو القدر..يطلق النار.. لكن على ظله فيرديه قتيلا.

obeikandl.com

« حاملة الرسالة»

وقفت على المصطبة، نظرت في التلاميذ و قالت بصرامة « سينطلق الامتحان و لا داعي لأن أذكركم أن « من غشنا فليس منا»، أي محاولة غش سأسحب الورقة مباشرة»..

انتهى الامتحان و خرجت من القاعة، في الرواق التقت بأستاذة زميلة..تبادلتا حديثا قصيرا و انصرفت كل منهما إلى عملها..

لم يكن حديثا عاديا في الحقيقة، بل كانت صفقة..فحتى هنا لا يخلو المكان من الصفقات ، و هذه التي ارتدت رسالة التعليم و وقفت منذ لحظات تذكر التلاميذ بأن من غشنا ليس منا، نسيت أن تذكر نفسها أولا بهذا المبدأ..لكن هي لا ترى ما قامت به غشا، هو فقط إسداء خدمة بين زملاء.. و قد صارت هذه هي موضة العصر..أن تغيّر التسميات و تحسّن و تهذب فتصبح مقبولة و لا ضير فيها، و كذلك كانت تفعل حاملة الرسالة مربية الأجيال.. كانت تتفق مع زميلتها مربية الأجيال مثلها أن تضيف بضع نقاط لتحسن علامة ابنها فينجح بمعدل جيد، لقد كانت تشحذ النقاط لابنها.. و هذا ما كانت تفعله منذ دخل المدرسة..لم يكن يهمها كيف ينجح بل المهم أن ينجح و أن لا يجلب لها الخزي بنتائجه السيئة و يزعزع صورة ابن الأستاذة الذكي..

كانت توزع العلامات كتوزيع الثروات، فتزيد الأثرياء نقاطا و تبخس الفقراء علما.. هنا أيضا في هذا المكان حيث ترسى القواعد و تغرس المبادئ طالت يد العفونة.. كانت عيون الأطفال ترى منها الإجحاف و الظلم فتتلوث البراءة في عيونهم و تهتز لديهم كل المفاهيم..

تقف أمامهم كل يوم تلقنهم دروسا، مبادئا و قيما، تطير كلماتها و تعلو كسحاب قطني أبيض في سماء القاعة..و بدل أن تستقر في عقول الصغار تتساقط على الأرض كالمطر الأسود.. ذلك أنها لم تنفخ في كلماتها صدقا، و لم تبعث فيها روحا، فصدّتها فطرتهم النقية التي لا تزال تميز الخبيث من الطيب. ينتهي الدرس و تعود هي إلى الواقع حيث لا مبدأ عندها سوى المنفعة..

لم تكن استثناءا من بين الكثير من المدرسين و المدرسات الذين امتهنوا التعليم فأهانوا رسالته النبيلة، و لم يروا فيه أبعد من وظيفة بأجرة في آخر الشهر و الكثير من العلاوات و الامتيازات.

عندما كانت صغيرة كانت البلادة الصفة الغالبة عليها، ما جعلها محط سخرية الجميع، فأرادت دوما أمرا يعيد لها احترامها لذاتها و يفرض على الناس تقديرها، فلم تجد بغيتها إلا في التعليم. تحقق مرادها، و بعد جهد جهيد و توصيات و وساطة استطاعت الحصول على هذه الوظيفة، الوظيفة حيث لا أحد يتتبع هفواتها في كل لحظة و لا أحد يقتفي أخطاءها في كل حين، لاسيما أنها كانت تملك معرفة وطيدة مع مسؤولين في القطاع..

هي مرتاحة إذا، تملك صورة لامعة، ناصعة، تواجه بها الناس ..و خلفها هناك من يخفي آثار زلاتها.. هذا كان ظنها الأخرق و بلادتها التي لم يغيّرها الزمن...فها هي زلاتها التي أغفلتها الإدارة و تناسها القانون، لم يفوّتها التاريخ.. كان هناك في الزاوية يجلس في وقار يسجل أسماء الأجيال التي تتلمذت على يديها و كانت زلاتها بعدد الأسماء، تنمو و تتكاثر و تكبر في قمة زهوها هي بمنصبها، باحترام زائف و وهم تقدير ..

وحدهم تلامذتها لم يصدقوا هذا الزيف المحيط بها، و وحدها كانت أعينهم تقف على حقيقتها المجردة.. كانت تكرههم ..نظراتهم تذكرها بالسخرية التي كانت تتلقاها في صغرها..كانت ترى نفسها بليدة في أعينهم، هناك كانت ترى إنجازاتها تتحطم و تنكسر..الاحترام يتلاشى و التقدير يتبدد..

كانت تريدهم أن يكبروا بسرعة لينطفئ ذلك النور في أعينهم و تختفي صورتها الحقيقية المنعكسة فيهم . انطفئ النور أو سينطفئ حتما لكن سيبقى امتداد ظلها لصيقا بها يخبّر عنها الكثير.

« استووا»

-" غير المغضوب عليهم و لا الضالين"

-" آمين" صدحت بها الجموع في المسجد..أعجبه صوت الجمع الغفير من خلفه، حدثته نفسه أن كل هؤلاء جاؤوا من أجل أن يحضروا درسه و ينهلوا من علمه الغزير ..

سلّم و أنهى الصلاة، احتشد الناس حوله، بين من يطلب الفتوة و من يسأل المشورة، فأجاب على البعض باقتضاب شديد ثم انصرف مع جماعة كانوا قد دعوه إلى مأدبة عشاء.

ركب معهم سيارة من آخر طراز و وصلوا إلى الفيلا الفاخرة حيث اُستقبل بحفاوة شديدة..بمجرد وصوله قُدّم العشاء، مدّت أمامه مائدة كأنها أنزلت من السماء .. فُتحت شهيته فما قام حتى ملأ جوفه..رفعت المائدة و جلس يتحدث و الكل يحدّق به، كان يحدثهم عن فضل المال في الإسلام و يعدد أسماء الصحابة الأثرياء و يردد على مسامعهم الأحاديث الواردة عن النبي في هذا الباب.. طبعا فلكل مقام مقال!! و لا يجوز في هذا المقام أن يخبرهم أن رسول الله كان يربط على بطنه صخرتين من الجوع.. كيف يخبرهم و قد امتلأ جوفه أن نبي الله ما بات شبعان قط؟ كيف يخبرهم انه كان فراشه الحصير و هو هنا يجلس على هذه الأريكة الوثيرة بينهم؟ لقد جاؤوا به هنا ليسمعوا منه ما يرضيهم، و قدموا له ما يرضيه فأرضاهم..

مذ ذاع صيته لم يعد يجد وقتا لنفسه و لا لأهله، بين عقد ندوات و تقديم دروس و تلبية دعوات كان ينقضي يومه، و ما ذاع صيته لفطنة و اتقاد ذكاء بل كان يحفظ ما يسمع و يقرأ عن ظهر قلب فيصبه على المسامع، و إنما ذاع لمرونته و محاباته للناس، كان يفصّل الفتاوى على المقاسات..كمحام ماكر يجيد الالتفاف حول القانون كان أيضا يجيد الالتفاف حول الأحكام، و كأنه يمتلك مفاتيح الجنة، يقلّب الأحكام على هواه و هوى أولئك الذين لم يبخلوا عليه بالعطايا، فيحدث لهم ثقوبا للتهوية، أو بعبارة أخرى يوجد لهم مبررات..

لم يكن في الأمر سوء فأبواب الله كانت مفتوحة للجميع ليعودوا في أي وقت.. غير أنهم لم يأتوا ليسألوه طريق العودة إلى الله، بل جاؤوا يطلبون منه شيئا يريحهم وخز ضمائرهم ..و كان دواءهم عنده و لكل شيء ثمن..

تلك كانت السوق أين يتاجر هؤلاء بالدين، هو يمنحهم دواء مغلفا بمغفرة و مثوبة من عند الله على ذنب لم يتوبوا منه..عل أكل مال لم يردوه لأصحابه، و هم يمنحونه هدية ..رشوة..عمرة..زيارة لبيت الله..

كل شيء ملّفق ..هكذا كانت تتم المعاملات حيث تضيع المسميات..

زار كثيرا بيت الله..صلّى هناك و بكى و دعا و في كل مرة يعود كانت تكبر علامة السجود على جبهته و يكبر معها إجلال الناس له و النظر إليه كعالم جليل حلّت فيه بركتا السماء و الأرض..

كانوا يلّقبونه بـ « الشيخ»..و يزيد عليها أتباعه - و قد صار له تلامذة و أتباع- « حفظه الله»، عندها يستشعر انه من «أعلام النبلاء»..أمره نافذ فيهم و رأيه صواب.. إن رضي عن أحد أنزل عليه من فضل الله و بركاته ما لم ينزل به..و إن سخط على أحد أحل به من سخط الله ما لم يحل به..

هكذا نصب نفسه حاجبا على أبواب الله يدخل إليها من يشاء.. يغدق عليه الداخلون منها بما يسرّ نفسه.. يغلفها جيدا بحديث« تهادوا تحابوا».. و على قدر الهدية يتبوء الداخل من الباب من الجنة مقعدا..

في خلواته النادرة مع ربه، يخضب دعاءه بالدموع.. يرفع صوته قليلا لينصت لارتجافاته، فيعجبه الأمر..و لا الصوت تجاوز الحنجرة، و لا الدموع تجاوزت العين ..و القلب يتقلب بين هدية و أعطية..

هل يموت قلب من يعيش في رحاب الله؟؟

وحدهم من يحسبون أنهم هم نور الله على الأرض يحترق قلبهم و يموت..

نور الله لا يرقد في جبة شيخ و لا تحت عمامته ..

نور الله يتقد في عيني فقير..

في روح صغير..

في دمعة ضرير..

في رجاء.. في مغفرة .. في توبة..

نور الله متجلي لا يحتاج ثوبا و لا لقبا ..

و هو مذ ارتدى العباءة و توج رأسه بالعمامة أعجبته نفسه..و مذ فتح ذراعيه لاستقبال الهدايا، تراكمت في طريقه إلى ربه و حجبت عنه نور الإيمان الذي كان يضيء قلبه..و ظلت تتراكم و تزيد و النور يخفت و امتداد ظله يزداد عتمة.

obeikandl.com

«حروف جوفاء»

سألها يوما صحفي : « ما هو الوطن عندك و في مفهومك؟»

- أجابت: « الوطن هو شفاه الأطفال التي تنفرج عن ابتسامات صادقة»

- « من أين تستمدين هذه الكلمات» أضاف سؤالا آخر.

- « أستمد كلماتي من النقاء في عيونهم..هناك أرى الحقيقة فأعيد رسمها بالحروف»

لم يدرك الصحفي دخل الأطفال في الموضوع ..لكن فكّر في نفسه على أنها كلمات جميلة تليق بأن تنشر في صحيفة مرموقة..

و لم تعرف من أين أتت هذه الكلمات .. لكنها فكرت أنها كلمات تليق بصورتها..

فاحت رائحة الكذب في ذلك اللقاء، و لا أحد منهما اكترث..فهو يريد إجراء حوار مع كاتبة معروفة و يحقق سبقا صحفيا..و هي رسمت لنفسها صورة جميلة تحرص دوما على تلميعها.

تمالكا نفسيهما من الضحك على هذا الكذب في تواطؤ سافر بينهما..فكلاهما كان يقتات على الكلمات، و لم يكن يعنيه صدقها بقدر ما كان يعنيه أن تباع و تشترى..

لم تستوقفها يوما عيون الأطفال لترى ما فيها..قد لا تختبئ الحقيقة هناك .. قد تكون فرت من عيونهم يوم احتلها الحزن ..ربما لم تعد عيون الأطفال توحي بشيء ما أدراها هي ؟!!

و هل وطنها حقا ابتساماتهم..هي التي تسكن وحدها شقة في حي راق، لم تدرك أنهم ما عادوا يبتسمون ..و أن طفولتهم قد بددت..و ابتساماتهم قد تلاشت تحت وطأة واقع فاجئهم مبكرا..

كتماثيل الرومان كانت كلماتها منحوتة بإتقان لكن من غير روح.. و كعلب هدايا كانت تغلفها بأغلفة فاخرة لكنها فارغة، و مع هذا فقد استطاعت أنت تصنع لنفسها اسما و تجمع حولها قرّاء و معجبين..

في مجتمع مفتون بجمال الصور، مأخوذ بنغمة الكلمات.. مجتمع لم يتعوّد القراءة بين السطور و الابتعاد قليلا عن السطح لسبر الأغوار، كان محتوما لها أن تنجح هي التي لم تكتب يوما بين

obeikandi.com

السطور و لم تعي يوما أن هناك بين سطر و سطر هامش كبير لكلام لا يقال إلا ضمنا، فلم يتطلب منها الأمر سوى أن تزيّن كلماتها و ترصفها جنبا إلى جنب..

في بدايتها كتبت عن الحب، الموضوع الوحيد الدارج منذ عقود، و على قدر ما استهلك و لا يزال يستهلك، فلم يمله أحد.. كتبت عن رجل لم يوجد في حياة ، و امرأة لم تكن، و نالت من التقدير ما لم تتوقعه هي نفسها.. و ظلت تكتب ما يريده القرّاء لا ما تريدهم هي أن يعرفوه، ذلك أنها لم تكن تعرف شيئا لتخبرهم إياه.. و من أين لها أن تعرف و هي لم تخرج يوما من قصرها العاجي، من شقتها في الطابق العاشر..لم يسمح لها الطابق العاشر برؤية الحياة.. الحياة الحقيقية التي يعتركها الناس و تعتركهم، لم تكن ترى من نافذتها من ذلك الطابق سوى الواقع من سطح و لهذا كانت تكتب على السطح، و بالكاد تلامس كلماتها الماء..

لم يكن الطابق العاشر بالعلو الذي يصيبها بالدوار، و لا بالدنو الذي يجعلها ترى الواقع دون غبار..لم تكن رؤيتها واضحة و لا بالحجم الحقيقي..

ربما كان عليها أن تجاور الواقع لتنظر في عينيه عن قرب و تراه كيف يكشر عن أنيابه في عيون أولئك الأطفال الذين تستمد منهم كلماتها لا أن تتخذ لها وطنا في ابتساماتهم..

«لا عمق في الكتابة من العلو»..كان عليها أن تدرك هذا..هناك ينعدم قانون الجاذبية فيأبى الحبر أن يجري على الورق و يتطاير في الهواء ..و لا يجد الظل أرضا يمتد عليها فيتبدد هناك.

«أزمة نفسية»

يقضي يومه في عيادته يعاين مرضاه، يتجه بعدها لتسجيل برنامجه اليومي..كان أسبوعيا عند بدايته، و لأن الناس كانت بحاجة لهذه الجرعة اليومية من الأمل، و لأن الجهة المنتجة كانت بحاجة إلى دفعة من الربح، و كان هو يبيع الأمل و يزيد الربح، فقرروا جعل البرنامج يوميا..

لم يتوقع أن « طب النفس» قد يكون جالبا للربح، فلطالما اعتقد الناس أنه طب يخص المجانين لا العقلاء..لكن كل شيء تغير..الاعتقاد تغير .. الجو صار مثقلا بالكآبة..و النفوس تسلل إليها اليأس..صار الجميع يحس بالوحدة و يتشبث بأي خيط مرهف يمده بأمل يبدد تلك الوحدة..

يوم زاره أحد معارفه في عيادته التي كانت شبه خالية حينها، ليعرض عليه فكرة برنامج يقدم إرشادات نفسية، لم يتحمس كثيرا للفكرة و حكم عليها بالفشل قبل أن تنطلق، لكن صديقه أقنعه بالفكرة « نحن نعاني من أزمة إنصات..لا ننصت جيدا لحديث بعضنا و لا لصمتنا، والناس في حاجة لمنصت جيد..أحد يسمع مشكلاتهم دون أن يحكم عليهم، و خلف الهاتف يكون البوح أسهل..و أنت فيك خصلتان مستمع جيد و متحدث أجود ...و البرنامج نجح» هكذا قال له يومها، و لم يحتج لوقت طويل ليقلب الأمر في رأسه و يوافق ففي النهاية لن يخسر شيء...

***

في طريق عودته إلى بيته كان يوزع الابتسامات، يستوقفه الناس يسألونه النصائح فيستفيض في النصح و الشرح..و بالفعل كسب صديقه الرهان و نجح البرنامج.. تحتشد الاتصالات على طرف الهاتف في انتظار كلمات منه تأتي كزخات مطر بعد احتباس ..

يدخل بيته.. يخلع نعله ومعه ابتساماته..لا شيء من ذلك الطبيب الناجح المتفهم و المستمع الجيد يرافقه إلى البيت ..يخلع كل ألقابه أمام الباب و يدخل بيته عاريا إلا من نفسه..ها هي صورته الحقيقية غير تلك التي يراها الناس ..

في بيته كان له وحده حق الكلام و للبقية واجب الإنصات..كان الجميع يهابه. بمجرد دخوله من الباب تتوقف الحياة عن الدبيب..تكتم الضحكات و ينزل الصمت باردا و لهذا لم يكن هناك دفء أسري في ذلك البيت ..

كان الناس يرون بيته مفعما بالألوان مفعما بالحياة، و وحدها زوجته و أولاده كانوا يرونه بيت بلون باهت..بيت رمادي كسحابة شتاء مشحونة بالرعود كان..

كان يجبرهم على مشاهدة برنامجه ..و كان الأمر يقتلهم، أن لا يملكوا من تلك الصورة الملونة سوى خلفيتها المبهمة..و مع هذا عليهم أن يستمروا في إظهار جمال الصورة للناس..أن يرسموا السعادة و الهناء على وجوههم ليحافظوا دائما على نفس الصورة، فقد كانت مصدر قوتهم ...و ما أصعب أن يقتات المرء من الزيف!!

كان نموذج الأب المتسلط و الزوج الأناني.. يرى انه الوحيد القادر على اتخاذ القرارات بدلهم.. و وحده الملزم بالحفاظ على نظام الأسرة و رقيها..يرى في لعب أبناءه ملهاة، و هو الذي طالما نصح الناس بمنح أبناءهم فسحة للعب..كانت تلك النصيحة للناس أما أبناءه فيجب أن يكونوا عباقرة و مثالا يحتذي به في الأدب و الأخلاق..و زوجته مثالا لربة البيت الناجحة..

كيف يمكن للإنسان أن ينصّل عما تعلمه و تلقنه في حياته؟ هذا لا يحدث إلا إذا ظل ذلك العلم يطفو على السطح و لم يترسب إلى العمق..و كذلك طب النفس عنده، لا يعدو أن يكون مفاهيم و نظريات و معارف حفظها ذات يوم و رسخت في عقله و لم تتشربها روحه.. و لما لم تتشربها الروح لم تنتح عبر مساماتها إلى الخارج لتغدو سلوكا..

هكذا كانت شهادته، و هكذا كان علمه..ثياب عمل يرتديها و يغدو بها، يراها الجميع.. يعجبون بها.. البعض يدفع له مقابلها، و عندما يعود في المساء يخلعها..

هذا ما كان يفعله كل صباح عندما يخرج من بيته.. و ككل يوم يترك هناك خلفه امتداد ظله يكتم الضحكات عن أنفاس أسرته و يزيل عن جدران بيته الألوان..

« المثالية»

ككل يوم تستيقظ باكرا قبل الجميع، تحضر الفطور ثم توقظ زوجها و أبناءها و تتفقد الجميع.. كانت قوانينها تنص على أنه غير مسموح لأحد أن يخرج بهيئة غير مرتبة من البيت، لذلك كانت تجعلهم يقفون في صف جنبا إلى جنب و تعيد تفقدهم مرة قبل أن تمنحهم الإذن بالمغادرة..

تقضي صباحها في التنظيف إعداد الأكل، و بعد أن تنهي تتجه إلى المدرسة التي يدرس فيها أبناؤها..بمجرد عبورها البوابة يراها الحاجب يتذمر، فهي تزور المدرسة يوميا تتحدث مع الأساتذة مطولا حتى ملّها الجميع..كانت كل أحاديثها عن دراستهم و امتحاناتهم و علاماتهم، تستفسر عن النقطة و نصفها..و في بعض الأحيان كانت تطلب بعض الدعم من بعض الأساتذة مقابل ما يمكنها أن تسديهم إياه من خدمات.. المهم عندها كان على الورق، في العلامات و الشهادات..

الحفلات المدرسية كانت هوايتها و هذا ما جعلها تتبرع بمبالغ كبيرة للمدرسة من أجل تنظيم مثل هذه الحفلات، و التي من الواجب أن يكرم فيها أبناؤها..

يوم طلب منها أحد أبناءها أن ينضم لناد رياضي لممارسة كرة القدم صرخت في وجهه « كرة القدم لأبناء الفقراء..و نحن لسنا منهم!! و إن كنت تريد ممارسة نشاط فعليك أن تختار بين الفروسية و المبارزة، و هذا كل ما عندي لك»، حينها لمعت في رأسها فكرة أن تسجلهم جميعا في نشاطات تليق «بالنبلاء» و إن لم تكن حقا منهم.. و بالفعل فعلت رغم اعتراضاتهم إلا أنه لم يكن لأحد أن يكسر كلامها..حتى زوجها لم يكن يملك أن يخالف لها أمرا..

كانت تغرس في عقول أبناءها أنهم من الطبقة الراقية و بالتالي عليهم أن يتصرفوا على هذا الأساس، أن يرتدوا مثلهم..يأكلوا منهم..يتحدثوا مثلهم ..و يتخذوا أصدقاء من مستواه.

و على هذا الأساس كانت تنتقي لأبنائها صداقاتهم..كلما دخل شخص جديد حياة احد منهم تقوم بتحقيق حول وضعه الاجتماعي، لترى إن كان يناسبهم أم لا! و بهذه الطريقة قتلت ذات يوم فرحة ابنتها بصديقة جديدة تعرفت عليها، بعد أن قامت ببحث عن هذه الطفلة و

Opeikandi.com

اكتشفت أنها تعيش في دارٍ للطفولة المسعفة، و أنها مجهولة النسب، جلست يومها لأكثر من ساعة تشرح لابنتها لما عليها أن تقطع علاقتها بصديقتها، و تلقنها الكلام حرف حرفا..ليلتها بكت ابنتها كما لم تبك يوم، و هي على العكس لم تتأثر للحظة، و لم تفكر في أنها قد تفسد براءة صغيرتين، و إحداهما ستنهار حياتها مع براءتها..

لم تكن هي لتبالي بالأمر، فهي تعبد « مستوى عائلتها الاجتماعي» و لا تسمح لأحد بالمساس بقدسيته.. و لم يكن ما فعلته من فض لبراءة الطفولة سوى قربان قدمته على مذبح هذا الشعار المعبود..

كان هدفها الذي تعيش أيامها لتحقيقه هو أن ينجح كل أفراد أسرتها، و إن لم يعنها كثيرا كيف.. فقد كانت مقتنعة أن أي فشل و لو كان ضئيلا سيجلب عليها ويلات الشماتة، فالجميع حسبها يحسدونها لكونها زوجة و أمًا مثالية، و الجميع - في ظنها- يترصدونها و يتربصون بأي زلة لها.. و لهذا لم يكن الفشل مسموحا به في أسرتها، و الكلمة في حد ذاتها كانت «طابو».. كانت تربيهم على أن الطريق إلى النجاح لا يهم كيف تكون ما يهم حقا هو الوصول إليه و التبرك بلمسه..و حتى مفهوم النجاح عندها كان مبهما و ينم عن نوع من البلادة، فهي تظن أن النجاح هو كل ما يثير الغيرة و الحسد عند الآخرين و ما عدا ذلك لا يهم..هكذا أنتجت أبناء ميكيافليين، هكذا علّمتهم أن يضربوا بالقيم عرض الحائط و يدوسوا على كل مبدأ لا من اجل أن ينجحوا، بل من أجل أن يحركوا في الآخرين مشاعر الغيرة..

قبل أن تذهب ككل يوم لمدرسة أبناءها..وقفت أمام المرآة..تأملت نفسها جيدا و سكن الإعجاب عينيها.. قالت في نفسها « الجميع يحسد أسرتي علي..يجب عليهم أن يقدروا نعمة وجود أم مثالية مثلي تدير حياتهم»..كانت المرآة تعكس لها ما تريد أن تراه، و كان امتداد ظلها يعكس ما لا تريد أن تراه.

الخاتمة

انسحبت شمس النهار على الجميع تاركة مكانها لظلام الليل، عاقدة أملها بالشموس الصغيرة التي قذفتها بين أضلعنا نواصل بها الرؤيا في غيابها..

شموس تذيب بنورها قوالب الأحكام الجاهزة التي ورثناها دون وعي، و صرنا نمارسها ونحكم بها..

على امتداد الظل تسقط الأقنعة و يتلاشى الزيف، و ندرك أن حقيقة الإنسان اجتمعت و تركزت في قلبه..و أن الكثير مما تغدقه عليه الحياة قد يخفي تلك الحقيقة..

بتلك الشموس بدأنا البحث عن الظلال..أعدنا التقاطها ظلا ظلا، و رددنا كل شخص إلى ظله، عسى أن ننفخ في الصور المزيفة روح الحقيقة..و إن كانت بلا لون..

قسنطينة في 28ديسمبر 2013

obeikandl.com